

دراسة التسامح الديني في أشعار إلياس فرحات

حسن مجيدى*

طيبة شكوهي**

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/١٠/٥ هـ ش

تاريخ القبول: ١٣٩٠/١١/١٠ هـ ش

الملخص

مدح النبي ﷺ أحد الموضوعات القديمة التي اهتم الشعراء بها. أنشد في العصر الحديث، بعض من شعراء المهجر النصراني قصائد في مدح النبي ﷺ خاصة إلياس فرحات، ودعوا العرب إلى التسامح والأخوة والوحدة. ما هي الأفكار والدوافع التي أدت إلى مدح النبي؟ في الحقيقة يعتقد بعض شعراء المهجر بوحدة الأديان، و لهذا يكرمون الرسول ويمجدونه في شعرهم و نثرهم. يجعل هؤلاء الشعراء حب الوطن دينهم و العروبة محوره. يعتبر التسامح الديني في أشعار إلياس فرحات رفضاً للتعصب والجمود، وهو من العناصر البارزة في أدب المهجر. يمجّد فرحات دين الإسلام لأنّ هذا الدين أنشأ أثراً كبيراً في توحيد الملل. كما أنّه يقدم العمل الخير على فرائض الأديان، ويرى أن الإسلام حقّ، على الرغم أنّه نصراني متمرد على طقوس الدين المسيحي.

الكلمات الدليلية: إلياس فرحات، الإسلام، وحدة الأديان، التسامح

الديني.

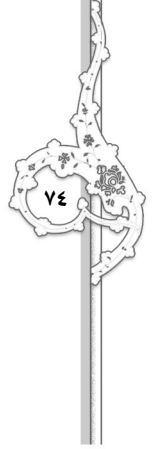


المقدمة

التسامح في اللغة من سامح في الأمر: ساهله ولاينه ووافقه على مطلوبه، والتسامح في الدين بمعنى التساهل فيه. (معلوف، ١٣٨٤ش: ٣٤٩)

لعل المهجريين هم، أهم فئة من رجال الفكر العربي الحديث تلك الفئة التي نشرت معاني التسامح والتسامي في الدين، وجعلت لذلك نصيبا كبيرا في الأدب. التسامح الديني حرية في التفكير، والتعبير، والمناقشة، والتفسير لشؤون الدين، بعيدا عن روح التعصب والجمود والتسليم الأعمى. أول من جهر من المهجريين برأيه الصريح في الدين ورجاله، "جبران خليل جبران" و"أمين الريحاني" على الرغم من الاختلاف الكبير في المنحى الفكري لكل من هذين الأديبين فقد كانا على رأى واحد في سذاجة المعتقدات الدينية الطائفية التي نشأ أهلهم عليها في الوطن. هؤلاء المهجريون يؤمنون بالله، ويدعون إلى الإيمان به، ولكنهم لا يرونه بعيون المعتقدات المذهبية التي نشأوا عليها في طفولتهم بل يرونه أبا لجميع مخلوقاته على السواء، يحبون أن يراه جميع الناس كذلك مهما اختلفت مذاهبهم وطوائفهم فلا فضل لذي ملة منهم على ذي ملة أخرى، ولا تفاوت بينهم أمامه.

نجد كذلك أدباء المهجر الجنوبي كارهين للتعصب الديني الذي مزق وحدة أوطانهم، فنرى المسيحي والمسلم يشتركان معا، في تكريم ذكرى مولد الرسول ويمجدونه في شعرهم ونثرهم، ونراهم جميعا يؤمنون بأن الدين، لم يفرق بينهم ما داموا إخوانا في العروبة واللسان والوطن وبأن الرسول مفخرة للأمة التي نشأوا فيها. يعتبر إلياس فرحات وشعره معلمين من معالم شعر المهجر الجنوبي. إنه شاعر لبناني ولد في قرية كفرشيمما وتلقى دروسه الأولى في دير القرقفة وفي سنّ العاشرة ترك المدرسة وراح يتدرب على المهن اليدوية علّه يجد فيها طريق النجاح في الحياة. في سنة ١٩١٠م هاجر إلى البرازيل وانضمّ إلى أخويه "وديع وسعيد" في ولاية ميناس. قد اشترك مع توفيق ضعون في إصدار مجلة "الجديد" ثم في تحرير جريدة "المقرعة" التي أنشأها سليم لبكي. لم تستقر حياة فرحات في مكان واحد، فهو يملك روحا لاتعرف الاستقرار أو الهدوء، فتراه ينتقل بعد زواجه أيضا من مدينة إلى أخرى ومن ولاية إلى ولاية ومن عمل إلى عمل. واستمرت حياة فرحات على هذا النحو؛ معاناة ومشاق من أجل العيش في المهجر



وعذاب وآلام من أجل واقع أمته وتناقضاتها ومشاكلها وأطماع المستعمر وبشكل خاص قضية فلسطين حتى يومنا الحاضر. اتسمت حياة فرحات بالحرية منذ طفولته، حرية التفكير وحرية التصرف، فشّب مطبوعا عليها، وكان أن غذتها بيئة البرازيل بما فيها من مفاهيم جديدة، ورفدتها بيئة المهاجرين العرب بما فيها من تناقضات وآراء مختلفة، وأنضجتها مشقات الحياة التي عاناها منذ نزوله أرض المهجر، فأصبحت هذه الحرية دينه وأهم مبدأ عنده. آثاره شامل، عدة دواوين شعرية: الرباعيات، ديوان فرحات، أحلام، الراعي، عودة الغائب، فواكه.

موضع إلياس فرحات من الدين

الدين والعروبه

نظر فرحات إلى مجتمعه العربي فوجد غول التعصب يخيم عليه ورأى أن هذا الداء صعب الشفاء بسبب كثرة المذاهب والأديان، فإذا به يتوصل إلى نتيجة جريئة في هذا الموضوع، لو طبقت فلا بد أن تقضى على هذا الغول إلى الأبد وهذه النتيجة هي عملية تمازج بين أتباع الأديان عن طريق الزواج حيث يقول:

زوج بنيك بنات ناس دينهم	بسهم سورته لدينك رام
وازف بناتك فى المذاهب كلها	للمؤمنين وعابدى الأصنام
واقرن بهذا الجبل بطرك تابعى	عيسى بشيخ مشايخ الإسلام
حتى إذا نفث التعصب سمه	منعت أذاه وشائج الأرحام

هو فى هذا إنسانى يسمو فوق تلك الحدود والفواصل الوهمية، إذ يؤمن أن المسلم يطلع إلى الحياة مسلما لأن أبويه مسلمان، والمسيحى، واليهودى، والبوذى، وعابد الأوثان، وكل هؤلاء ليس لهم الخيار فى انتقاء الدين الذى يريدون، فلماذا تعمهم الأحقاد والبغضاء والعداوات!

نظر فرحات إلى بلاده، فوجدها فريسة فى يد الأتراك أولا، ثم نهبا مقسما بين الفرنسيين والإنجليز أما أبناء وطنه الصغير (لبنان) فوجدهم مشتتين، المسيحى يكره المسلم، والمسلم يكره المسيحى، المارونى يحارب الدرزى، والدرزى يحارب المارونى يبادلُه حقدا بحقده.

إنّ معالجة فرحات لقضايا مجتمعه تنطلق من مفهوم رئيس هو أن العرب



أمة واحدة ذات أصل واحد ويجب أن يعيشوا متفاهمين لاتفرق بينهم الحدود أو القيود أو المذاهب أو المعتقدات ولا بد أن يكون الود والإخاء يحكمان علاقتهم كما تحكمها الواقعية والأعمال الطيبة. أما الدين فهو علاقة خاصة بين الإنسان وربّه، لهذا ركز كثيرا على قضية اختلاف المذاهب والأديان في الوطن العربي، إذ شعر أنها عقبة كأداء في سبيل خلق مجتمع عربي إنساني متطور، يشعر الفرد فيه بكيانه كاملا مادام يقدم ما عليه من واجبات تجاه هذا الوطن:

فيم التقاطع والأوطان تجمعا قم، نغسل القلب مما فيه من وضر
مادمت محترما حقي فأنت أخي آمنت بالله أو آمنت بالحجر
(المصدر نفسه: ٤٩)

أما العروبة، هذا الاتجاه الذي تمسك به فرحات ودافع عنه، فقد فهمها فهما إنسانيا وطنيا فهما رابطة تربط أبناء العرب كلهم وتشدهم بعضهم على بعض على الرغم من كل الفروق والاختلافات فهمها وسيلة للقضاء على التعصب وإذابة كل حدود الوطن العربي المصطنعة التي أوجدتها الأيدي الأجنبية ولنستمع إليه يصور العروبة أمّا تضم جميع أبنائها تحت جناحها دون أي اعتبار لدين أو مذهب أو عقيدة أو إقليم، ماداموا يحمون حماها ويذودون عنها:

ليست عربتنا طقوس ديانة ليست تميز أحدا عن بطرس
تذكي الجهالة بالتعصب نارها كل البنات لكل طالب زوجة
فالأم ترعى بالسواء صغارها لا شأن للأديان في تشريعها
لا دين يعبد عن بثينة جارها أجواق يهوه مثلت أدوادها
(فرحات، الصيف، ١٩٥٤م: ٢٧٠)

هجوم فرحات لرجال الدين

أما رجال الدين، وخاصة المسيحي، فلهم عند فرحات النصيب الأوفر، فهو لا ينساهم في أية مناسبة يتكلم فيها على الوطن لأنهم من الأسباب الرئيسة لبلاد العرب عامة، ولبنان خاصة، وهذا وصف لهم من إحدى قصائده التي يتكلم فيها على حكومة لبنان زمن الانتداب الفرنسي حوالى سنة ١٩٣٤م:

ويزيدها حلماً بروز قلانس للشر فوق سطوحهن مراقص



أنى اتجهن فثم ويل راصد هنّ القدور لطبخ كل دسيسة
 رحبت وتحت سقوفهن مقاعد مذ وزعت في الشرق محتوياتها
 والحقد نار والروؤوس مواقد والشرق في دفع البلاد يجاهد
 (فرحات، الخريف، ١٩٥٤م: ١٠٩)

كان الشاعر يعاني في وطنه الأول من الفروق الدينية والطائفية بين أبناء البلد الواحد، بل الدين الواحد وكان يرى أن رجال الدين، بما لهم من نفوذ على الناس، لا يحاولون لإزالة أو كسر شوكة هذه الفروق، بل على العكس من ذلك يزيدون نار الحقد في قلوب الناس، فأوجد هذا الجو في نفسه ألما وفي روحه ثورة على رجال الدين، ظهر أثرهما واضحا في شعره الذي نظمه بعد مهاجرته، فهجم على التعصب بجميع أشكاله وصوره وعلى رجال الدين الذين اعتبرهم، أساس البلاء في الوطن العربي. آمن فرحات أن الأديان لا يمكن أن تقوم بالتفريق بين أبناء البلد الواحد والشعب الواحد، وإنما رجال الدين الذين يقومون بهذه الأعمال، وهذا ما جعله يهاجمهم هجوما عنيفا وينعتهم بأقبح النعوت في قوله:

لاتجعلوا آلة التفريق دينكم فالدين عن وصمة التفريق معصوم
 يقول في إحدى قصائده، مهاجما رجال الدين المسلمين والمسيحيين:
 سيزول جيل فاسد متعصب متأثر علماء الجهلاء
 لايفهمون الدين إلا جبة وعمامة وتنطعاً وهراء
 ان يخسر الوطن اللواء وأخته وسواهما فالأمر ليس بلاء
 أما إذا نقض الوضوء، فنكبة ذرى الجبال وتغمر الأوداء
 ما وحدهم سبب البلاء فأن في أديار لبنان، لهم، شركاء
 (المصدر نفسه: ١٣٣)

تمجيد الإسلام والفخر بالعرب

كان من الطبيعي أن يتحول حب فرحات للعروبة وتقديسه لها، إلى الفخر والاعتزاز بالإسلام، وذلك لما لهذا الدين من أثر كبير في العرب والعروبة وفي اتحاد الملل، هذا يبدو في قصيدته (يارسول الله) التي يقول فيها:



غمر الأرض بالأنوار النبوه
بينما الكون ظلاماً دامس
إن فى الإسلام للعرب على
فادرس الإسلام يا جاهله
ما وحدهم سبب البلاء فأن فى
كوكبٍ لم تدرك الشمس علوه
فتحت فى مكة للنور كوه
إن فى الإسلام للناس أخوه
تلق بطش الله فيه وحنوه
أديار لبنان، لهم، شركاء
(فرحات، الصيف، ١٩٥٤م: ٨٠)

يقول مفتخراً بالعروبة والأصل العربى والزعماء الأحرار المخلصين:

نحن من يعرب ويعرب تاج
صاغه الله من ثمين الجواهر
نحن من محمد و على
نحن منا شكرى وعبد الناصر
(فرحات، مطلع الشتاء، ١٩٥٤م: ٤٣)

من شعره فى تمجيد الإسلام قوله:

سلام على الإسلام أيام مجده
نما فنمت فى ظله خير أمة
طويل عريض يغمر الأرض والسما
أعدت لنصر الحق سيفاً ومرقماً
(الناعورى، ١٩٥٩م: ٥٦٣)

التسامح الدينى

الف. تقديم الخير على الفرائض وتقديس العقل

قد ألمه ما كان يراه من تفرق فى وطنه نتيجة اختلاف الأديان، فصرخ صرخة
عنيفة، داعياً لعمل الخير والصلاح وترك أمور الدين للخالف:

دع آل عيسى يسجدون لربهم
فيوحدون ويشركون جهالة
أنا لأصدق أن لصاً مؤمناً
أدنى لربك من شريف ملحد
عيسى وآل محمد، لمحمد
والموت يخلط مشركاً بموحد
(فرحات، الرباعيات، ١٩٥٤م: ١٥٨)

فهو مرجئى فى فهمه للأديان، يترك البتّ فى أمرها للخالق تعالى، فهو الذى
يحكم على البشر وليس البشر أنفسهم. كما أنه يقدم عمل الخير على فرائض



الأديان، أما الوطن والعروبة، عند فرحات، فهما مقدمان على الدين فإذا تضاربا مع الدين فهو لاشك متخل عن دينه في سبيل عروبتة ووطنه ويقول:

إذا الشيخ والقسيس لم يكرما النهى وأحكامه، فليبرأ الدين منهما
إذا أنت أديت الفرائض كلها ولم تحو حسن الخلق، لم تك مسلما
ويقول:

كافر يعشق المكارم، خير من لئيم يغوص في الإيمان
ويطلب من مواطنيه وأفراد أمته ترك الفروق الدينية ونسيانها، وتحكيم العقل،
في كل أمر من الأمور، وذلك من أجل قيام مجتمع عربي متماثل:

أيها الناس قد منحتهم عقولا ليس ترضى بما سوى البرهان
عززوا الحب في البلاد إذا شئ تم تروها تعزّ بالعمران
(فرحات، الربيع، ١٩٥٤م: ٢٧٨)

هو في هذا يقدّس العقل و يرفعه فوق كل شيء، حتى الكتب السماوية، و كل ذلك من أجل وطنه ومواطنيه.

ب. التمرد على طقوس الدين المسيحي

أما الدين فقد فهمه خاصة بين الإنسان وربّه، وآمن بجوهر الأديان ومنبعها الأصلي، ولكنه تمرد على التخريجات والقشور والطقوس البالية التي يلصقها رجال الدين بها لمصالحهم الخاصة، وقد أظهر تمرده هذا في تناوله لطقوس الدين المسيحي، حيث رفض كثيرا منها لعدم ملاءمتها العقل، وشعوره أنها ليست ذات أثر في الدين أو في أخلاق الناس. ويكفي أن نعلم أنه تمرد على أحد الطقوس المهمة في الدين المسيحي وهو تعمييد الأطفال، ورفض تعمييد أبنائه على الرغم مما تعرض له من حملات من الأقارب ومن رجال الدين، وذلك لعدم اقتناعه بها. وعلى الرغم من أرتودكسيته ونصرانيته فإنه لم يكن يؤمن قط بدين، غير دين العروبة ولم يشأ أن يخضع عقله لسلطان المعتقدات والطقوس الدينية:

الدين قلبٌ نقى لا اتصال له بالملح والزيت والتعزيم والهذر

(فرحات، الرباعيات: ٥٤)



ج. الهجوم على صور القديسين

لم يقف فرحات عند حد في مهاجمة ما اعتبره قشورا بالية، فهاجم صور القديسين والاعتقاد بها، كما هاجم التماثيل الدينية وتهكم على رجال الدين في تنظيم طقوس الدينا:

هاجم القسوس بتنظيم الطقوس وما	فيها من الدين غير الزهو والترف
قد صيروا الدين في الدنيا كلؤلؤه	مطروحة تحت أكداس من الصوف
وشر ما فعلوه أنهم فتحوا	بابا يفر إليه كل معتر
مادام من يعترف تغفر خطيئته	ماذا على اللص أن يسرق ويعترف

(فرحات، الرباعيات، ١٩٥٤م: ٩٣)

لا يعرف فرحات المذهبية في الدين، ولا يؤمن بمظاهره وطقوسه، لأنّ الدين عنده في القلب النقي وحده ولا علاقة له بما يضيفه إليه أصحابه من مراسيم و طقوس وانقسامات. وهو لا يتصور مطلقاً أن يكون الدين سبباً للتفريق بين أبناء الأمة الواحدة أو أبناء الإنسانية عامة. ليس فرحات بين العرب أول من حمل على رجال الدين وعلى تعدد المذاهب واختلاف الطقوس فعندنا أيضاً من هؤلاء فارسان آخران جليان وهما جبران خليل جبران وأمين الريحاني، ولكن فرحات بلا شك من أعنف من هاجمها ومن أكثرهم تصلباً وتطرفاً. لعل السبب الأكبر في كراهيته لهم، هو ما رآه في وطنه لبنان من انقسامات دينية كانت نكبة كبرى على وطنه؛ فلم تكن مذبحه عام ١٨٦٠م، لتقع في لبنان لولا اختلاف الدين ولم تكن فرنسا لتنجح في لبنان لولا تعلق قسم من اللبنانيين بها باسم الدين، وما تزال التفرقة الدينية إلى الآن سبباً قوياً في ضعف الشرق العربي وانقسام أهله على أنفسهم وفساد نظام الحكم. (الناعوري، ١٩٥٩م: ٤٨٩)

النتيجة

نفهم من خلال أشعار فرحات أنه لا يعرف المذهبية في الدين، ولا يؤمن بمظاهره، لأنّ الدين عنده في القلب النقي وحده وهو لا يتصور مطلقاً أن يكون الدين سبباً للتفريق بين أبناء الأمة الواحدة، وعلى الرغم من أنه مسيحي في مولده ونشأته، إلا إنه لا يمارس طقوس الدين نفسه. هو يمجّد الإسلام ويرى



لهذا الدين أثرا كبيرا فى العرب والعروبة وفى اتحاد الممل. الوطن والعروبة عنده مقدمان على الدين، فإذا تضاربا مع الدين فهو لاشك متخل عن دينه فى سبيل عروبتة و وطنه. يعد فرحات بلاشك أعنف من هاجم على رجال الدين و لعل السبب الأكبر فى كراهيته لهم، هو ما رآه فى وطنه لبنان من انقسامات دينية، كانت نكبة كبرى على وطنه، و ما تزال التفرقة الدينية إلى الآن سببا قويا فى ضعف الشرق العربى وانقسام أهله.

